ISSN: 2437-041X
مجلة أنثروبولوجيا
DOI :
مجلد: 04 عدد: 07 السنة 2018

واقع التابو الجنسي بين الثقافة "البطريركية" والدين.

The reality of sexual taboos between “patriarchal” culture and religion.

سوسان جرجس، الجامعة اللبنانية، لبنان.

soussanegerges@gmail.com

ملخص:

تعتبر الجنسانية عامة، والعلاقة الجنسية ضمنًا ظاهرة متغيّرة تبعًا لثقافة المجتمع، ويُنظر إليها في المجتمعات البطريركية باعتبارها أكثر الظواهر الاجتماعية التي تُضرب حولها التابوهات، سيّما وأنّها تلقى دعم النص الديني (الأديان السماوية الثلاث) بما هو مخزون للرموز المترسخة في المخيال الاجتماعي. إنّ تابو الجنس في المجتمعات البطريركية متباينٌ على قاعدة الجندر المرسِّخة لصورٍ نمطية معنْونة بثنائية الذكورة/ الأنوثة؛ وإن كان هذا التابو يستقي مصادر تباينه من التنشئة الاجتماعية، فإنّ ذلك ينعكس لاحقًا في علاقات الفرد الذاتية والغيرية، كما في توزيع الأدوار والسُلَط. هذا وتخضع العلاقات الجنسية لتحوّلات ثقافية بفعل سيرورة التثاقف والعولمة (التقنية خاصةً) التي تسارع من ديناميات التغيّر الاجتماعي يومًا بعد آخر، ليبقى النشاط الجنسيّ في المجتمع رمزًا من الرموز التي تعيّن هوية الفرد ودوره وطبيعة تواصله مع الآخر.

الكلمات المفتاحية: التابو الجنسي، المجتمع البطريركي، الدين، المخيال الاجتماعي، الجندر.

Abstract:

Sexuality a changing phenomenon according to the culture of society. It is seen in patriarchal societies as the most social phenomenon in which taboos strike, especially since the receive the support of religious texts (the heavenly religions) including a stock of symbols embedded in the social imagination.

Although the taboos of the patriarchal societies differ from the stereotyped gender base of stereotypical masculinity/ femininity; although this taboo draws disparate source of socialization, it is later reflected in the individual's own and heterosexual relationships, as in the distribution of roles and authority. Sex relations are subject to cultural transformations through the process of acculturation and globalization (especially technical) Which accelerates the dynamics of social change day after day, so that sexual activity in society remains a symbol of the symbols that define the identity of the individual and his role and the nature of his connection with the other.

Keywords: sexual taboo, patriarchal society, religion, social imagination, gender.

مقدمة:

يعتبر "الجنس" في مجتمعاتنا البطريركية من أكثر المواضيع مأسسة وإخضاعاً لمنطق الشرع والورع والعقل إلى درجة أصبح فيه "تابو" يحرم الاقتراب منه إلّا بموافقة جماعية اجتماعية؛ إنّه أكثر المواضيع تعقيدًا وكتمانًا في مجتمعات محكومة بمفاهيم "العذرية" و"الشرف" و"العيب" و"الحياء"، وهي قيم اجتماعية لها جذورها العميقة التي تجعلها تقاوم التغيير دون أن تتمكن من القضاء عليه وذلك بفعل التثاقف وسيرورات العولمة التي تتزايد وتيرتها يومًا بعد آخر.

تعريف الجنسانية:

جاء في القاموس الكبير لعلم النفس le grand dictionnaire de la psychologie أنّ الجنسانية هي مجموعة الظواهر الجنسية (المتصلة بالجنس) التي يمكن ملاحظتها في عالم الأحياء؛ كما أنّها مجموعة متنوعة من طرق الإشباع الجنسي التي يمكن أن تحدّد وراثيًا، إضافة إلى أنّها تلقينية، مكتسبة وتُصاغ دائمًا انطلاقًا من قواعد اجتماعية، وهذا يعني أنّها "ظاهرة متغيّرة تخضع لثقافة المجتمع"[1]، فضلًا عن تعرّضها للتبدّل والتغيير وفقًا للمثاقفة الفكرية والمجتمعية التي قد تربط مجتمعًا بمجتمعاتٍ أخرى. ويشكّل النّشاط الجنسيّ بُعدًا أساسيًا من أبعاد الكائن الإنساني: إنّه مصدرٌ للحياة العاطفية والنظام النفسي ولاضطرابه، إنّه خزانٌ ضخمٌ من الطاقة الخلّاقة عندما يأخذ شكل الحب المؤنسن.

مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: 04 عدد: 07 السنة 2018 DOI :

إذا كانت الجنسانية تجمع ما بين الجنس، الهوية- النوع اجتماعية، الدور، التوجّه الجنسي، الإيروتيكية أو الإثارة الجنسية، المتعة، الحميمية والإنجاب، فإنّ ما نقصده بالعلاقة الجنسية هو كل اتصال جسماني حميم بين ذكرٍ وأنثى دون أن يقتصر على العلاقة القضمهبلية، وإنّما يشمل كذلك الملامسات الخارجية للأعضاء التناسلية الأساسية والثانوية، وهي كلها ممارسات يعيشها الشخصان باعتبارها اتصالات جنسية.

المرتكزات الأيديولوجية/الدينية للتعامل مع الجنس باعتباره تابو:

سنبدأ كلامنا بالعودة الى التوراة حيث اعتبر اليهود القدماء العلاقة الجنسية خارج السياق الديني محظورة ومعاقب عليها. بمعنى آخر فالجنس في المعتقد اليهودي كما في المسيحية لاحقاً فعل مرتبط بالزواج ولا مبرّر له كغاية في حدّ ذاته وإنّما الغرض الأسمى منه هو الإنجاب والتكاثر ما جعل منه عملية ميكانيكية أو نفعية تخرج على كل متطلبات الجسد الجنسية ولا تعطي الشهوة والمتعة أهمية تذكر[2]. ففي سياق ربط العلاقة الجنسية بالزواج نقرأ في سفر الأمثال "يمكن للمرء أن يضع ناراً في حضنه ولا تحترق ثيابه؟ أو أن يمشي على جمر ولا تكتوي قدماه؟ هذا ما يصيب كل من يزني بامرأة غيره، حتماً يحل به العقاب".

أما عن العلاقة الحتمية بين الجنس والإنجاب فيتضح لنا من سفر التكوين (16؛ 2-3) أنّه يمكن للزوجة الشرعية أن تمنح زوجها جارية كي ينجب منها ويعتبر ابن الجارية بمثابة ابن شرعي، كما في قصة سارة والجارية هاجر...وهذا يعني أنّ الغرض الرئيسي من الزواج هو إنجاب الذرية. وهذا ما يتّضح لنا بشكل جليّ من خلال سفر التكوين (38؛ 8- 11) الذي يتكلم عن نظام الخلافة على الأرامل حيث تتزوج الأرملة من أخ أو قريب المتوفي وينسب أول ولد في هذه الزيجة الى المتوفي.

أما في الكنيسة التقليدية، فعلى مدى سنوات طويلة اعتبر التطرّق الى الأمور الجنسية أمرًا محظورًا؛ إذ كان هناك ربط مستمر بين الجنس والخطيئة من جهة ومقارنة بين الجنس والتبتل من جهة أخرى، لذا غالبًا ما كانت الكنيسة التقليدية تنظر الى الجنس كتابو وتلقي إيعازاتها لحصر التربية الجنسية في حدودها الدنيا ضمن نطاق العائلة. ومن أمثلة ما ورد في الإنجيل المقدس عن النظرة إلى الجنس ما جاء في رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس: «وأمّا من جهة الأمور التي كتبتم لي عنها، فحسنٌ للرجل ألا يمس امرأة، لأني أريد أن تكونوا مثلي، أقول لغير المتزوجين وللأرامل إنه حسنٌ لهم إذا لبثوا كما أنا". وإذا ما قرأنا كتاب الاعترافات للفيلسوف أوغسطين نرى أنه كان ينظر للشهوة والجنس باعتبارها إثم وهلاك.

وأما وفق الدين الاسلامي فقد كان للحياة الجنسية نظرة شاملة تنشد إدماج الممارسة الجنسية في الحياة اليومية، والاعتراف بها كضرورة لازمة للمجتمع. ولهذا نشأت قوانين تنظمها داخل إطار النكاح؛ الذي يسمح للمسلم بتلبية جميع المتع، والانصهار في الجماعة من خلال بنية الزواج. لا بدّ من التأكيد على أنّ الاسلام كدين (لا كجماعات لها خصوصيات ثقافية تنزع نحو البطريركية وتابوهاتها) خففّ من حدّة التابو الجنسي إذ تضمنت تعاليمه نوعًا من التربية الجنسية التي تبدأ بتعليم الأطفال أحكام الصلاة والوضوء وبيان نواقضها والتفريق بين الأطفال في المضاجع. وقد تمّت الإشارة إلى ضرورة الاستئذان كجزء من التربية عامة والتربية الجنسية خاصة، فقد جاء في القرآن الكريم "يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح...."[3] .

كما يتضمّن القرآن الكريم أيضًا توصيات آياتية مختصة بالتعامل مع المرأة الحائض والعلاقة بين الزوجين والمتعة الجنسية وغيرها شرطَ أن يتمحوّر ذلك في المؤسسة الشرعية للجنس ألّا وهي الزواج. من وجهة نظر أنتربولوجية ثقافية ترتبط الجنسانية بمسألة النسب والبنوة، وهي مسألة مركزية في القانون الرمزي الذي يدير السلوكيات الجنسية؛ وبناءً عليه يصبح الزواج مؤسسة تنظيمٍ وضبطٍ اجتماعيين للجنسانية البشرية، يتمّ عبرها تسجيل الذرية وسط المنظومة القرابية، من هنا يمثل حظر سفاح المحارم، عالميًا، نقطة التقاء الجنسي بالاجتماعي[4]. وإذ نؤكد أنّ الجنس وتابوهاته مسألة ثقافية متغيّرة تبعاً للبناء السوسيو- ثقافي بما في ذلك الانتماء الديني، نمط الانتاج السائد، مستوى التعليم ونوعيته، التطور التقني وغير ذلك من العوامل المجتمعية، إلّا أنّنا نرى أنّ الأيديولوجيات الدينية - كبناء ميتولوجي رمزي- هي عميقة الأثر في المخيال الاجتماعي للناس الذي دأب على استبطانها بشكل انتقائي يرسخ النظرة البطريركية للجنس كتابو متباين جندريًا.

هكذا نرى أنّ مخيال الناس في المجتمعات البطريركية – سواء كانت مسيحية تجاوزت عقيدتها الدينية على مستوى الوعي، أو إسلامية تقرّ من خلال القرآن الكريم بمسؤولية كل من آدم وحواء على حدّ سواء في عصيانهما الله وخروجهما من الجنة- يستبطن فكرة الخطيئة الأصلية لحواء وذلك بهدف تجريم الأنثى أو لنقل وضعها في موقع الاتهام الدائم في انتهاك تابو الجنس وتوريط الرجل في خطايا لم يكن ليرتكبها.

فضلًا عمّا ذكرنا فإنّ اهتمام الدين الاسلامي بالجنس والتربية الجنسية - بغضّ النظر عن محدوديتها وجندريتها التي هي مسائل فقهية نعرض عن مناقشتها الآن- لم يتمكن من

مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: 04 عدد: 07 السنة 2018 DOI :

الإحالة دون اختراقها من قبل العقلية الأبوية وذلك تبعًا لاستقاء المجتمع البطريركي سلطته الذكورية من جعل الجنس مسألة تابو محرّمة التداول، وإنّ أيّ كلام فيه هو اختراق للمقدس إلّا إذا اكتفينا بالنزر اليسير الذي يُقدّم بتباين جندريّ مفرط للمقبلين على الزواج بما يضمن إخضاع المرأة عامة وجنسانيتها خاصة للملكية الذكورية.

تجليات التابو الجنسي المتباين جندريًا في التنشئة الاجتماعية.

بداية نودّ أن نؤكّد أن نظرتنا للتنشئة الاجتماعية تتمحور حول كونها مسألةَ استبطانٍ تسعى إلى إعادة إنتاج البناء الاجتماعي السابق، أضف إلى تجربة الحراك الاجتماعي الناجمة عن سيرورة التثاقف المرتبطة بمتغيرات اجتماعية مثل: النزوح، الهجرة، نمط الانتاج المعتمد، مستوى التعليم ونوعيته، الانتماء الديني وغيره. بناء عليه فالتنشئة الاجتماعية –ومن ضمنها التربية الجنسية وتابوهاتها وتبايناتها الجندرية- هي مسألة ثقافية متغيرة عموديًا وأفقيًا. أن تكون الجنسانية تابو فذلك لا يقتصر على حظر العلاقة الجنسية خارج إطار الزواج كما يعتقد البعض، وإنّما هي سلسلة من المحظورات الاجتماعية المتباينة جندريًا والتي تشمل تفاصيل الحياة المعاشة بأكملها. تتمظهر تجليات التابو الجنسي منذ الطفولة وبالضبط منذ أن يلقي الطفل أسئلته الأولى حول الحياة، الولادة، الجسد (الأعضاء التناسلية خاصةً) والفروق الفيزيولوجية بين الذكور والإناث كما بين الصغار والكبار.

منذ هذه المرحلة المبكرة تعمل الأسرة على انتقاء المعتقدات والقيم والاتّجاهات الثقافية لتقدّمها إلى الطفل بأسلوب شخصيّ وانتقائيّ. وتحرص الأسرة الأبوية على تلقين معايير السلوك المحدّدة للأدوار النمطية لكل من الذكر والأنثى، فيتمّ عبرها تأسيس وتدعيم الاختلافات النوعية الخاصة بالأدوار والتوجهات الجنسية المستقبلية لكل من الجنسين.

بناء عليه نرى الأهل في المجتمعات البطريركية يعتمدون تربية جنسية متباينة جندريًا ففي حين يتباهى الكثيرون بعضو الصبي وكأنّه شيء ثمين، فإنّهم يحرصون على إحاطة الفتاة وجسدها بمنظومة العيب التي ستشكّل جزءًا أساسيًا من منظومة تصوّراتها وتهيئ لاوعيها لتطبيع التابوهات الجنسية المتباينة بين الجنسين. وفي حين يعطى الجسد الذكوري هامش كبير من الحرية للتعبير عن نفسه، فإنّ الجسد الأنثوي يخضع لدليل من المحظورات التي تحرص على إبقائه ضمن حيز "التابو" (المحجوب المرغوب) الذي منحته إيّاه العقلية التقليدية. وهكذا نجد الصبي يتكلم بصوت عالٍ، يصفّر، يتشاجر، يشتم مستخدماً قاموس مصطلحات جنسية تبشّر ب"فحولة" لا مردّ لها، يتجه حيثما شاء، يرفع رجليه في الهواء وينطلق في عملية

اكتشاف كامل لجسده وتقدير إمكانياته وحدوده، أما الفتاة فهي لا تستطيع حتى أن تضحك بصوت عال، ولا أن تمشي بحرية، ولا أن تنام كما تشاء ولا أن ترفع رجليها أو تفتح فخذيها، إذ كل ذلك قد يفضح فضائلها ويهدد عذريتها ويكشف حركاتها وإيماءاتها التي يؤطّرها المخيال الذكوري في قالب الجسد/ الوليمة/ الجنس. إنّ هذه الذهنية الذكورية المؤسسة لصورة نمطية ترى في المرأة/ الأنثى "ممثِلٌ حيٌّ لأخطار النشاط الجنسي وقوته الكاسحة الممزّقة"[5] هي ما يدفع بعض الناس إلى حجب بناتهم داخل الحيّز الخاص، كما يدفع البعض الآخر إلى إجبارهن على ارتداء الحجاب كعلامة على تغير الوضع الفيزيولوجي والاجتماعي والعبور من مجموعة المهمّشين إلى مجموعة فاعلة جنسيًا يجب مراقبتها أو موارتها ولو رمزيًا بانتظار الزواج.

إنّ هذا التباين الجندري في التربية الجنسية عميق الجذور في مجتمعاتنا البطريركية التي طالما نظرت بتضاد لكل من الجنسانية الذكورية والأنثوية. فإذا كان يتمّ تحفيز الرجل ليُعلن عن رجولته من خلال السماح له بأن يبدأ حياته الجنسية بشكل مبكر ويتعامل مع ما هو جنسي كموضوع للمتعة وتحقيق اللّذة، فإنّه غالبًا ما يتمّ التعامل مع المرأة بقمع كل حق لها في اللّذة أو الاستمتاع أو أخذ زمام المبادرة في كل ما يتعلق بجسدها على هذا المستوى[6]، ذلك أنّ الحرية والمبادرة الأنثوية في الجنس تشكّل تهديدًا للنظام الاجتماعي البطريركي. وعلى الرغم من معرفتنا بهذه الهالة المقدسة التي تحيط موضوع الجنسانية- والجنسانية الأنثوية خاصة إلّا أنّه لا يمكننا تعميم النظرة التحليلية لهذه التربية، سيما وأنّ التحولات قد فرضت نفسها عنوة عقب تنوّع مؤسسات التنشئة الاجتماعية وانخراط هذه المجتمعات في حركة تثاقف مستمرة رسختها أكثر سيرورات العولمة التقنية المرافقة لمواقع التواصل الاجتماعي وإعلام الصوت والصورة بكل ما يقدّمه من معلومات وبرامج وأفلام، يبقى الاطّلاع عليها مختلفًا حسب بيئة الفرد الاجتماعية ومستواه الثقافي والتعليمي وانتمائه الديني والطبقي وما إلى ذلك من متغيرات اجتماعية لا يمكن فصلها عن موضوع الجنسانية.

التابو الجنسي وتجلياته في العلاقة مع الذات ومع الجنس الآخر (قبل الزواج).

أن نتكلم عن العلاقة بالجنس الآخر فذلك يعني أن نتكلم عن الصداقة بين الجنسين، عن علاقات الحب أو السعي لإيجاد شريك في الحياة الزوجية وذلك في نظرة تحليلية للبناء الاجتماعي بما يشتمل عليه من توزيع للأدوار والمجالات والأوصاف والأفعال وكافة ما هو مسموح وممنوع على أساس صورة نمطية جندرية.

ISSN: 2437-041X مجلة أنثروبولوجيا
DOI : مجلد: 04 عدد: 07 السنة 2018

إنّ تقنين الاختلاط بين الجنسين موجود في المجتمعات البطريركية كافة، إلّا أنّه يختلف نسبياً من مجتمع إلى آخر ومن أسرة إلى أخرى تبعًا لعدد من المتغيرات أبرزها: نمط الإنتاج المتبع، الإنتماء الطبقي، المستوى التعليمي، درجة التثاقف والانفتاح على الآخر، مدى الإلتزام الديني للناس. إن الحرص على تقنين هذا الاختلاط يستقي مصدره من النمط الثقافي السائد كما من الأيديولوجية الدينية التي مهما خفت حضورها على مستوى الوعي عند الناس إلا أنّها تبقى حاضرة في المخيال الاجتماعي الذي يصيغ أفعالهم وردود أفعالهم الى حد كبير.

بناء على هذا المخيال يتمثّل المجتمع التقليدي (بذكوره كما بنسائه) المرأة على أنّها الكيد، الفتنة، الغواية، الجنسانية التّهمة، الشيطان والخطيئة. ليست هذه الصور في الواقع الاّ استبطان لأسطورة الخطيئة الأزلية التي أسست لها التوراة وتبنّاها الإنجيل المقدس؛ وإذا كان القرآن الكريم قد ساوى بين آدم وحواء في عقاب الخروج من الجنة إلّا أنّ المنظومة الفقهية الإسلامية تزخر بصور المرأة المتماهية مع الشيطان ورمزه الجنس الآثم، هكذا نقرأ في القرآن الكريم: "قال إنّه من كيدكنّ، إنّ كيدكنّ عظيم"[7]، "فصرف عنه كيدهنّ"[8] . هذا وتتكرر العديد من الأحاديث النّبوية للتّدليل على شيطنة الجسد الأنثوي وفاعليته جنسيًا وخطورته في زعزعة البناء الاجتماعي القائم، مما يستدعي إقصاؤه والتعامل معه بحذر شديد. من هذه الأحاديث ما ورد في كتاب أحمد التيجاني: "المرأة تُقبل وتدبر في صورة شيطان"[9]، "المرأة من حبائل الشيطان"[10]، "ما يئس الشيطان من وليّ قط إلّا أتاه من قبل امرأة"[11]، " لا يخلو رجل بامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما"[12]، ولمّا كان الشيطان في هذه الأحاديث يمثّل خطر العلاقة الجنسية المحرّمة الشديدة الاحتمال، فإنّنا بصدد توظيف النص الديني من أجل تكريس المرأة كمصدر للفتنة المتمثل في جسدها بالذات. إنّ هذه الصور النمطية يتم تمثلها واستبطانها من قبل النساء كما الرجال، وإذا كان الرجال يهدفون الى السيطرة وضمان سلامة النسب، فإنّ النساء يستثمرن أجسادهنّ الموسومة في المخيال الاجتماعي بالكيد والشيطنة من أجل تحصيل مكتسبات سلطوية بها يتمّ التنافس مع النساء والتوازن مع الرجال.

إزاء الربط الموهوم بين المرأة والشيطان وإزاء الرمزية التي تمثّلها، يبدو الرجل في موقف سالب أمام جسد المرأة، فهي التي تغريه وتتسبّب في خروجه عن الطريق السوي. لذا كان لزامًا عليه إخضاع أداة الفتنة لضوابط ثقافية ودينية تعمل على تدجينه وتنميطه وإخضاعه (لا بل اخضاع جنسانيته) للمراقبة والعمل على إخفائها وكبتها قدر الامكان.

مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: 04 عدد: 07 السنة 2018 DOI :

وفي حركة تعليل دائرية تستبطن المرأة صورةً لنفسها: إنّها الجسد الشهي، البكر، الخصب الذي يسعى الرجل الى اقتناصه متمثّلاً صورة الصياد، الذئب، الفاتح، الغازي للأراضي العذراء ويصبح حال لسان الناس في المجتمع التقليدي "لا تأمّن لَدْكير ولو كان طول شبير".

إذًا يفترض حظر العلاقة بين الجنسين (قبل الزواج) أو على الأقل تقنينها بغية حفاظ المرأة على بكارتها/ عذريتها، رمز الشرف في المجتمع البطريركي. وإذا كان الرجال هم من يفرضون الضوابط الاجتماعية على المرأة فإنّ النساء- خاصة الأمهات ومن في مقامهنّ- هنّ من يضعن تلك الضوابط موضع التنفيذ ليعملن بذلك على إعادة انتاج القيم التي تقمع المرأة وتهينها في علاقتها بذاتها، بأنوثتها وجسدها. هكذا يعتبر الناس في المجتمعات التقليدية - وبغضّ النظر عن انتمائهم الديني، أنّ الصداقة بين الجنسين (كصداقة ثنائية) أمر غير مرغوب فيه إلّا ضمن مجالات أو أمكنة محدّدة، ونقصد بذلك زمالة المدرسة أو الجامعة أو العمل بما يكفل – أقلّه على صعيد المخيال- عدم التورّط في علاقة جنسية من شأنها أن تضيف الى هوية الرجل "رصيداً فحولياً" في حين أنّها لا تمنح المرأة سوى سمعة سيئة عنوانها التفريط بالشرف كرمز وقيمة دالة على الأخلاق وحسن التربية.

أما عن علاقات الحب في المجتمعات التقليدية فالمسألة أكثر تعقيداً. إنّها العلاقة الأكثر حظرًا والأكثر طلبًا في الآن عينه. فمن جهة أولى، تحمل علاقة الحب بين الرجل والمرأة في طياتها بذور علاقة جنسية "غير شرعية"، سببها الأساسيّ تبعًا للمخيال الاجتماعي ضعف المرأة المنظور إليه كمركب جوهريّ وفطريّ في تكوين شخصيتها. وإذ كان الناس في المجتمعات التقليدية الضيقة يحرصون على استخدام آليات غير مباشرة لصيانة العذرية الأنثوية عبر الزواج المبكر أو فرض الالتزام الديني أو المراقبة الذكورية للفتاة أو الحدّ من خروجها الى المجال العام، فإنّ التفريط بهذه العذرية قد يهدّد حياتها بالفناء جسدياً عبر ما يسمى بجرائم "الشرف" أو رمزياً عبر الضغط أو المقاطعة الاجتماعية.

من جهة أخرى نرى الكثير من الفتيات يسعين- وأحيانًا بتواطؤ مع الأمهات أو الأخوات والصديقات- لأن يعشن قصة حب (قصيرة الأمد على الأغلب)، الهدف منها التمهيد للزواج الذي ما زال يُعتَبر وعلى حدّ تعبير سيمون دي بوفوار مورد رزق المرأة والمبرّر الاجتماعي الوحيد لوجودها[13]. وعلى الرغم ممّا بينّاه أعلاه إلّا أن علاقة الحب بين الجنسين بدأت اليوم تلقى قبول الناس إثر توفّر المتغيّرات المجتمعية (علم المرأة وعملها- التثاقف- النزوح والهجرة- العولمة التقنية والانفتاح على الاخر عبر العالم الافتراضي) التي أسست للتغيير الذهني الذي بات يخفّف اليوم من حدة ذكوريته.

ISSN: 2437-041X مجلة أنثروبولوجيا
DOI : مجلد: 04 عدد: 07 السنة 2018

وفي صدد التحوّلات الحاصلة نودّ الاشارة إلى أنّ التغيرات (الشكلية) في البنية الاجتماعية أدت إلى ما يمكن أن نعتبره ازدواجية في التعامل مع جسد المرأة وجنسانيتها، وخاصة فيما يتعلق بمفهوم العذرية الذي أصبح من الضروري التميز فيه بين العذرية البيولوجية المطلقة والعذرية السلوكية النسبية. يحرّم الدين عامةً العلاقة الجنسية مع الآخر خارج إطار الزواج، كما يدعو أتباعه إلى التخلّق بالحياء ومنه غضّ البصر. جاء في الكتاب المقدّس "من نظر الى امرأة بشهوة، زنى بها في قلبه" (متى 27/ 5- 28)، "اهربوا من الزنا" (1 كورنثوس 18:6)، "ليكن الزواج مكرّماً، والمضجع غير نجس. وأما العاهرون والزناة فسيدينهم الله" (عبرانيين 4:13)، فضلًا عمّا ورد من تسامح السيد المسيح مع "خطيئة" مريم المجدلية وذلك في قوله "من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر".

وفيما خصّ الدين الاسلامي، فقد جاء في القرآن الكريم "وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهنّ ولا يبدين زينتهنّ إلّا ما ظهر منها...."[14]. "والذين هم لفروجهم حافظون إلّا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنّهم غير ملومين"[15]، "ولا تقربوا الزنى إنّه كان فاحشة وساء سبيلاً"[16]، "الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين"[17]. يكمن سرّ التأكيد على "حفظ الفرج" واعتباره أمانة يجب وضعها في حقّها، لعلاقته المتينة والمباشرة بحفظ الأنساب والحرص الشديد على حفظ وسلامة النسب الصريح من أن يدنّس، وهو العرق النابض لإرساء مكانة الفرد في مجتمعه[18]، إلى جانب أهميته في المواريث.

من جهتها تجرّم القوانين المدنية في لبنان العلاقة الجنسية خارج إطار الزواج، حتى إنّ قاتل المرأة (القريب منها) في هذه الحال يحصل على عقوبات مخفّفة باعتبار الجريمة دفاعاً عن "الشرف"، تلك القيمة المتمركزة في الجسد الأنثوي، لا بل في غشاء بكارتها الذي يفترض بالمرأة حفظه كي يسلّم سليمًا الى صاحبه الأصليّ: الزوج. وفي هذا السياق الجندري يتّضح التوافق بين القوانين والأعراف إذ تمثّل "جرائم الشرف" نمطًا سلوكيًا شائعًا في العديد من المجتمعات البطريركية التقليدية، حيث يعتبر "الشرف" قيمة مهيمنة على كل ما عداها من القيم الثقافية، لدرجة يصبح فيها تبعًا لتمثّلات الناس عنه قيمة مقدّسة لا يمكن المساس بها أو حتى إخضاعها للنقاش العقلاني. وعلى حدّ تعبير "عزّة شرارة بيضون"، ف"أمام سطوة الشرف الغامرة تتراجع المشاعر والأخلاقيات ذات الصلة بالقرابة والأمومة والأخواتية، ويتمّ نزع كل معنى أو قيمة شخصية أو إنسانية عن الشخص الذي أخلّ بذلك الشرف على نحو حتميّ. وتختزل إنسانية المرأة - وإن كانت أختًا وبنتًا وقريبة، بل لأنها كذلك- إلى فعلها الذي أخلّت به بذلك الشرف، فتستحق بموجبه الإلغاء"[19].

مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: 04 عدد: 07 السنة 2018 DOI :

من هنا كان وما زال حرص النساء الشديد للمحافظة على عذريتهن البيولوجية في الوقت الذي تتعرّض فيه العذرية السلوكية لتغيرات كثيرة، ذلك أنّ خروج الفتاة للعلم والعمل قد خفّف من حدّة معايير "الشرف" السلوكية لينحصر معناه بعدم العلاقة الجنسية غير "الشرعية" بين الرجل والمرأة. فعلى سبيل المثال يرى البعض في المداعبات الجنسية (كالتقبيل والغمرة والملامسات) حركات تقيّم الفتاة بعدم الشرف وتستدعي أحيانًا قتلها، في حين أنّ البعض الآخر يرى أنّ تلك الحركات "عادية" وأنّ الفتاة في هذه الأيام (خاصة تلك التي تتعلّم وتعمل وتخرج الى المجال العام وتسكن بعيدًا عن أهلها) لا بدّ وإنّها تدخل في علاقات غرامية، وأنّ بعض تلك المداعبات يحصل بينها وبين الرجل الشريك، ولكن ذلك لا ينفي عنها صفة الشرف ما لم تفرّط بغشاء بكارتها، المركز الأساسي للشرف الأنثوي حسب المخيال الاجتماعي البطريركي الذي يتفق عليه غالبية الناس دون تمييز في الجنس والدين والثقافة.

التابو الجنسي وانعكاساته في العلاقة الجنسية بين الزوجين:

تصيغ التنشئة الاجتماعية نسق التصورات والاستعدادات الجسدية لكل من الرجل والمرأة، ما يدفع كل منهما لاحقًا الى استبطان تمثّلات جندرية نمطية للشريك (الزوج/ الزوجة) ولطبيعة العلاقة الجنسية به. إذا كانت غاية الزواج في الدين المسيحي، وتبعًا لما أوضحه المجمّع الفاتيكاني الثاني هي إنجاب البنين وتربيتهم، فإنّ الدين الإسلامي رأى في الزواج سبيلًا يحقّق به الإنسان توازنه واستقراره النفسي والاجتماعي، ومن ذلك قوله تعالى "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون"[20]. فضلًا عن أنّه ضروريّ لإرضاء الحاجات الجنسية – الذكورية- المعترف بأهميتها وضرورتها: "أحلّ لكم ليلة الصيّام الرفث إلى نسائكم هنّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنّ علِم الله أنّكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهنّ وابتغوا ما كتبَ الله....."[21]. تبعًا للذهنية البطريركية القائمة على أساس ثنائية جندرية: ذكورة/ أنوثة، فقد شكّل الزواج بالنسبة للمرأة عامل ستر وحماية ومعيارًا أساسيًا لتحقيق مكانة اجتماعية، أمّا الرجل (التقليدي) فقد رأى في الزواج آلية أساسية لاستمرارية النسب الأبوي فضلًا عن كونه فرصة للتمتع الجنسي؛ وقد حرص الزوج لذلك على اختيار زوجة تتوفر فيها معايير صغر السن، الجمال، الحشمة، وخاصة العذرية/ البكارة.

إنّ عذرية الزوجة هي من تكفل للرجل أن يكون فاتحًا غازيًا لجسد أنثوي طالما نظر الى الجنس باعتباره تابو يحرّم الاقتراب منه (فتاة ما بايس تمها إلّا أمها)، دون أن ننسى أن هذا التابو الجنسي شديد الوطأة في حضوره على الرجل أيضًا، إذ يجد نفسه في ليلته الأولى مع زوجته

مضطرًا لتقديم الدليل على نصره الفحولي في امتلاك جسد أنثوي بكر. وفي هذا المجال لا بدّ من التأكيد على أهمية العذرية في الدينين المسيحي (بدعوى ولادة السيدة مريم العذراء للمسيح من دون دنس الجنس) والاسلامي (بحكم الآيات الكثيرة التي تكلمت عن حور العين الأبكار في الآخرة، وكذلك بعض الأحاديث النبوية)[22]. تجدر الإشارة إلى أنّ قسمًا كبيرًا من النساء التقليديات يستبطنّ صورة الجنس كعيب فنجد منهنّ من تتزلّف الوجع والجهل والسلبية خلال العلاقة الجنسية الأولى مع الزوج (كمؤشرات للحياء الأنثوي في المخيال الاجتماعي)، كما أنّ البعض منهنّ يعشن خوفًا حقيقيًا من كل ما هو جنسي متمثّلات إياه كفعل مشين وساقط يتعارض مع الأخلاق والقيم الدينية. لذلك نرى المرأة في هذه الحالة تخفي جنسها (أو رغبتها الجنسية)، لأنّ الشبقية واللّذة في المخيال الاجتماعي هي من حق الرجل فحسب. وهذا ما يفسّر لنا سبب تعامل نسبة كبيرة من النساء مع ما هو جنسي بشكل ملتوٍ مغلوط وغير صحي، كما يفسّر إلى حدّ كبير لماذا تعاش "الممارسة الجنسية" بشكل يلفّه التباعد الذي يتنافى بشكل تام مع كل ما تتطلبه من حميمية وتقارب[23].

إذا كانت المرأة تخشى المبادرة إلى العلاقة الجنسية مع زوجها نتيجة للتابو الذي ضرب حول الجنس منذ الصغر، فهل تراها تستطيع التمتّع عن تلك العلاقة لأيّ سبب كان (باعتبارها شريك في العلاقة) أم أنّها تتعامل مع نفسها ومع الشريك انطلاقًا من مبدأ سيد/ تابع؟؟ إنّ إجابتنا ستبدأ من منطلق الأيديولوجيا الدينية التي تلعب دورًا كبيرًا وغير مباشر في صياغة الصور النمطية للعلاقة الجنسية ضمن المخيال الاجتماعي. لقد حضّ "بولس" الرسول في الإنجيل المقدّس على خضوع المرأة للرجل، إذ قال "أيتها النّساء اخضعن لرجالكنّ كما للرب، لأنّ الرجل هو رأس المرأة كما المسيح رأس الكنيسة". وقد جاء في رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس "لتتعلّم المرأة في كل خضوع، ولكن لست آذن للمرأة أن تعلم ولا أن تتسلّط على الرجل بل أن تكون في سكوت...."[24]. إذاً إنّ واجب خضوع المرأة للرجل في الحياة الاجتماعية ينسحب على العلاقة الجنسية بينهما. أمّا في الدين الاسلامي فقد جاء في الآية 34 من سورة النساء "الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهنّ فعظوهنّ واهجروهنّ في المضاجع واضربوهنّ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهنّ سبيلًا إنّ الله كان عليًّا كبيرا".

بغضّ النظر عن التأويلات اللغوية الحديثة حول مفهوم "الضرب" في القرآن الكريم، فإنّ الاعتماد على ما جاء في كتب المفسّرين التي صاغت مخيال الناس وتصوّراتهم الى حدّ كبير رأت أنّ الإسلام قد أباح - في سياق العلاقة الجنسية بين الزوجين وخوفًا من نشوز المرأة- ضرب الرجل لزوجته كنوع من التأديب المحمّل بمدلولات العنف والسلطة الذكورية[25]. ويبقى على

ISSN: 2437-041X مجلة أنثروبولوجيا
DOI : مجلد: 04 عدد: 07 السنة 2018

المرأة/الزوجة (في المجتمع التقليدي) التي طالما ضربت الأسوار حول جنسانيتها أن تركّز اهتمامها على العناية بجسدها وإضفاء لمسات الإغراء عليه بغية أن تكون دائمة التهيؤ والاستعداد لتلبية طلبات زوجها وحاجاته الجنسية بالوضعية واللغة الجسدية التي يطلبها.

وفي النهاية لا بدّ لنا من التأكيد أنّ ما تكلمنا عنه هو كلام بالعموم، ولكن لا يمكننا أن نتغافل عن أنّ هناك تحوّلات بنيوية بطيئة نتيجة لسيرورات العولمة (التقنية خاصة) والتثاقف وغير ذلك من متغيرات مجتمعية تختلف من مجتمع الى آخر ومن أسرة إلى أخرى، ومنها: مستوى التعليم، طبيعة العمل، النزوح، الهجرة، الحراك الاجتماعي، الانتماء الجيلي، الديني، المناطقي، الطبقي وغيره.

استنتاجات وتوصيات:

إنّ البنية الثقافية هي المحرك الأساسي لفرض هالة من القداسة حول الجنس/ العلاقة الجنسية في المجتمعات البطريركية، لكنّ هذا لا يمنعنا من القول إنّ النص الديني بما هو مخزون للرموز المترسخة في المخيال الاجتماعي يشكّل سندًا أساسيًا للبنية الثقافية الذكورية.

على الصعيد الجنساني يتمثل الرجل الجسد الأنثوي باعتباره عورة يجب سترها، فتنة يجب درءها، جسد شيطاني يهدّد استقرار البناء الاجتماعي، فضلًا عن تمثّله كملكية ذكورية يجب المحافظة عليها وعدم التفريط بها. ارتكازًا إلى هذه التمثلات يصبح ضبط الجنسانية الأنثوية وإخضاعها هدفًا للاحتواء ضمن مؤسسة الزواج بما تتضمنه من ثنائية السيطرة/ الخضوع.

في المجتمعات البطريركية وداخل مؤسسة الزواج غالبًا ما تنفى عن العلاقة الجنسية صفة "الأيروتيكية" بمدلولاتها الحداثوية، ويتمّ التعامل مع المرأة على أساس واجبها في الطاعة المباشرة وغير المباشرة، ما يسمُ العلاقة الجنسية بطابع الأداتية التي تجعل الإنجاب أبرز أهدافها أو ربما هدفها الوحيد. إلّا أنّ ما يجب التأكيد عليه هو أنّ المدخلات الثقافية الناجمة عن التثاقف والانفتاح على الخارج والانخراط في سيرورات العولمة التقنية تسهم في خلق تحوّلات ثقافية في المجتمع عامة وفي العلاقة بين الجنسين/ الزوجين ضمناً.

إنّ ما قدمناه من تحليل لطبيعة العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة يعمل على ترسيخ صورة نمطية للذكورة والأنوثة. إنّ الذكورة تعني الفحولة والمبادرة والملكية وحماية "الشرف" وحتى "الجريمة" والعنف، أما الأنوثة فهي الهشاشة والطاعة والقبول والثقوب القابلة للاختراق.

وتبقى وظيفتنا كأنتربولوجيين هي في البحث الأمين "الموضوعي" سواء في توصيف الوقائع الاجتماعية أو تحليلها خارج إطار المنهجية الكلاسيكية، وذلك بأن تكون قراءتنا للأمور بعين الباحث المبتكر للمفاهيم لا المقلّد لها أو المعيد إنتاجها (وخاصة في مسألة القراءة الدينية) وكذلك باعتماد قراءات معرفية تكاملية عبر- تخصصية interdisciplinary تفرضها طبيعة إشكالية الدراسة.

الهوامش:

[1]ابراهيم الحيدري، "النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب"، دار الساقي، ط1، 2003، ص. 213.

[2]مازن معروف، "الجنس في التوراة"، مجلة جسد، عدد 8، 2010، ص. 122.

[3]القرآن الكريم، سورة النور، آية 58.

[4] R. Courtois, Ann. Méd. –Psycho., 1998, 156, n° 9, http://hal.archives-ouvertes.fr/docs/00/18/27/47/pdf/1998-conceptionsetdefinitionsdelasexualité.pdf

[5]فاطمة المرنيسي، "ما وراءالحجاب- ديناميكا المذكر- المؤنث في المجتمع الإسلامي الحديث"، ترجمة: أحمد صالح، دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع،1997، ط1، ص 126.

[6]خلود السباعي، "الجسد الأنثوي وهوية الجندر"، دار جداول، ط1، 2011.

[7]القرآن الكريم، سورة يوسف، آية 28.

[8]القرآن الكريم، سورة يوسف، آية 34.

[9] أحمد التيجاني، تحفة العروس ومتعة النفوس، تحقيق جلال العطية، لندن 1992، ص 36.

[10]المصدر نفسه، ص 32.

[11]المصدر نفسه، ص 32.

[12]المصدر نفسه، ص 35.

[13]أنظر: سيمون دي بوفوار، الجنس الآخر، ترجمة: نداد حداد، دار الأهلية للنشر والتوزيع، ط1، 2008.

[14]القرآن الكريم، سورة النور، آية 31.

[15] القرآن الكريم، سورة المؤمنون، آية 5- 6.

[16] القرآن الكريم، سورة الإسراء، آية 32.

ISSN: 2437-041X مجلة أنثروبولوجيا
DOI : مجلد: 04 عدد: 07 السنة 2018

[17] القرآن الكريم، سورة النور، آية 2.

[18] Voir: Pierre Legendre," L'Inestimable objet de la transmission, Etude sur le principe généalogique en occident", Paris, Fayard 1985.

[19] عزة شرارة بيضون، "نساء يواجهن العنف"، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2010، ص 38.

[20] القرآن الكريم، سورة الروم، آية 21.

[21] القرآن الكريم، سورة البقرة، آية 187.

[22] أنظر سورة الرحمن آية 56، سورة الواقعة آية 35- 37.

وكذلك أحاديث مثل: عليكم بالأبكار فإنّها أعذب أفواها وأنتق أرحاماً وأغرّ غرّة.

[23] Voir: Abdelhak Serhane, "L'amour circoncis", Eddif, 2e édition, 1995, p. p. 214-215.

[24] الكتاب المقدس، العهد الجديد، الإصحاح الثاني: 11- 14.

[25] ابراهيم الحيدري، "النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب"، مرجع سابق، ص. 256.